الدكتور داود سلوم وحوار في الثقافة العراقية

اصبت بداء حب الوطن.. فلا استطيع الفرار منه ولا الفكاك من قيده

- قصيدة النثر تشبه الذكر الذي تحول الى انثى

- ادب الجواهري ادب عذاب الماضي وليس فرح الحياة ويأسها.

الحوار مع الاستاذ الدكتور داود سلوم هو حوار مع نصف قرن من الانجاز الثقافي، في الادب المقارن، وفي مختلف حقول الابداع الثقافي، ومعرفة موسوعية في الادب العربي. شجاعته قادته الى الرفض. دعا لإحترام الانسان والثقافة فهدد بولده، فإضطر الى الصمت ثم الاستقالة والسفر.

حاوره سعيد عبد الهادي

عاد بهدوء الى التدريس والتأليف والاشراف الجامعي. لم تشغله السياسة بل شغله الوطن. في هذا الحوار نفتح كوة على انجازه وطريقته في التفكير.

★ لقد شاركت في خمسة عقود من النتاج الادبي، كيف تنظر الى ذلك.

- اعتقد ان هذه العقود الخمسة كانت من اغنى العقود الثقافية من حيث العطاء في حياة الثقافة العربية. فقد رعت الحركة الثقافية بعد ثورة عام ١٩٥٨ مباشرة وزارة (المعارف) آنذاك وكانت تأخذ بيد الباحث العراقي. ثم انتقلت الرعاية الثقافية الى جامعة بغداد فقد كانت فيها لجنة لتعضيد المطبوع الاكاديمي، وبعد ان تأسست وزارة الثقافة والاعلام قامت (دار الشؤون الثقافية) او مهما كان اسمها في توسيع الاهتمام بالثقافة الابداعية والثقافة العامة. فقد اصدرت لي وزارة (المعارف) مؤلفي (النقد المنهجي عند الجاحظ) واصدرت لي جامعة بغداد (ديوان الكميت) و (ديوان نصيب) واصدرت لي وزارة الثقافة (مقالات في النقد الادبي) و (مقالات في الادب المقارن) و(اثر الادب العربي في تراث العالم) و (الجاحظ- منهج وفكر) واصدرت هذه المؤسسات مجتمعة عدداً لا يحصى من الرسائل الجامعية.

كل هذا الانفتاح شجع الادباء على النشر وشاع اصدار المؤلفات على حساب اصحابها ايضا. واهتمت الكليات الانسانية بإصدار المجلات العلمية حيث تم نشر مئات - ان لم اقل آلاف - المقالات العلمية الرصينة. وكان هذا الشعور بالنشاط وفورة الشباب قد دفعت بي الى كتابة كثير مما كان يمكن الاستغناء عنه او يقوم مقامه بعض ما طبعته. ولعل بعض ما كتبته لم ينل رضا الآخرين خاصة حين مسّ التصدع الثقافي بعد الثورة ولكني اعتقد انه كان من واجب المثقف ان يقوّم ما صدر لأن كثيراً من هذه الآثار قد ضاع واندثر ولم يبق له ذكر الا في (الادب المعاصر في العراق).

★ هل تستطيع ان تتحدث عن لحظة فاصلة لتشكيل شخصية ثقافية عراقية حديثة؟

- عقب كل حدث سياسي مهم يهزّ المجتمع ويزلزله -مثل الذي حدث لدينا- وينتقل به من حالة الى حالة تحدث حالة صمت طويلة يعقبها مثل ما تمخضت عنه الحركة الرومانتيكية في فرنسا بعد ذهاب نابليون وما زال الادباء قبل الاحتلال صامتون ولعلهم في الاساس لم يؤمنوا بمن كانوا يهزجون له. وما زال اليأس الذي افرزته الحرب او التفاؤل الذي عند بعضهم لم يحققا اعمالاً ابداعية.

فإلى متى سوف يستمر هذا الصمت؟ وانا لا ادري. كما ان كل ادبائنا الذين نتوقع منهم الجديد هم (تلامذة) الفكر الاوربي الذي يأتيهم من المجلات الثقافية او الكتب المزدحمة واظن ان مثل هذا التيار لن يخلق المفكر، لأن المفكر عقل وثقافة، ولا اظن ان البيئة العراقية بعد الطوق الذي ضُرب عليها في الماضي بسبب الحصار الثقافي هيأت للمثقف جواً يشحذ عقله.

ولم اجد كل ما صدر في الصفحات الثقافية خلال عام الاحتلال الا مقالات لا تكشف عن وجهة واضحة وما زال المفكرون يسبحون في بحيرة من الافكار المبتسرة المترجمة او يقرّبون الكتاب الغربيين الى القارئ العربي في صورة مبتسرة.

اما اغلب الكتاب فإنهم اشبه بالافراخ الصغيرة التي ندرج في اعشاشها ابوابها ولا تستطيع الطيران. لقد تعودنا واعتقدنا من خلال العادة ان العراق لا يفرز المفكر كما انا حملنا في انفسنا اعتقاداً راسخاً بأنه لا يوجد مفكر يمكن ان نؤمن به الأ انفسنا ولعلنا في هذه الحالة اشبه بقول الشاعر:

لم ار شخصاً حسنا منذ دخلت اليمنا

★معظم الكتاب المعاصرين ذهبوا الى ان ثقافة كل من الزهاوي والرصافي اعظم من شاعريتهم لهذا مات تأثيرهم الشعري وبقي تأثيرهم الثقافي في حين يقف الجواهري على الضد من هذا، وهذا ما ابقاه حيا شعريا. كيف تنظر الى هذا الراي؟

- في السؤال كثير من الحقيقة، والسبب مقدار الثقافة العلمية والادبية التي اكتسبها كل منهما، فالزهاوي رائد المعرفة الحديثة مستمدة من الصحافة العلمية واللغة التركية، والرصافي راوية من راوة الادب القديم واللغة العربية ولذلك فإنهما في كتبا كتباً مختلفة لا علاقة لها بالشعر مثل (الجاذبية) و(المجمل مما ارى) الذين كتبهما الزهاوي وكتاب (الآلة والادارة) و(العروض) ومقالات نقدية كتبها الرصافي، وان كليهما اشتغل بالتعليم والترجمة والشيء الاهم الذي ابعدهما عن الشعر انهما ولدا في فترة اليقظة السياسية فكان شعرهما (مقالات) و ليس (قصائد) في موضوعات غير شعرية ولا تجارب ذاتية كما ان لغة الصحافة الحديثة غلبت على اسلوبهما فكان الموضوع غير شعري واللغة اقرب الى النثر. ولما كان اسم الشاعر اوقع رنيناً في نفوسهما فقد غلب عليهما الميل الى حمل اسم الشاعر ولعل اسم (الناظم) اليق بهما.

اما الجواهري فقد اهتم بلغة الشعر اكثر من اهتمامه بلغة العلم او الفلسفة، وكان ابعد عن اللغة الفصيحة الحديثة وكان قد حفظ دواوين الشعراء الكبار وحمل معه شك المعري وغضب المتنبي وشاعرية البحتري وابتكار المعاني عند ابي تمام. واريد ان اقول شيئاً عن خلود الجواهري.

فإن خلوده مازال في دور الاختبار. نعم اثار الجواهري المثقف من خلال كفاحه بلغة الشعر الحقة ودافع عن الحق وجادل الظلم، فإذا ما أقر الحق وزال الظلم فإن خلود الجواهري يكون قد انتفى ونحن في حاجة الى شاعر يغني نفس الانسان ويثير تساؤله عن الحياة والموت. فهو رجل (غضب) اكثر من كونه شاعر (فكر) وخلود الشاعر يأتي من لغة كلغة الجواهري ولكن من فكر مثل فكر المعري او المتنبي او شكسبير او غوته في الآدب الغربية. واني اعتقد سرعان ما يصبح ادب الجواهري ادب (عذاب) الماضي وليس فرح الحياة ويأسها وحيرة الانسان وهذه بعض اسرار الخلود.

فالجواهري يمتلك (لغة) الشاعر ولا يمتلك (موضوع) الشاعر. فالجواهري في موضوعه ابن الفترة التي عاش فيها واذا استثنينا القصيدة الرائعة (اتيتنا) فإن الشاعر لم يترك وراءه شعراً وانما ترك وراءه شعراً سياسياً واجتماعياً أثار شجن جيله والاجيال التي تعيش فترة التخبط وبعد ان يهدأ البحر سيرسب شعر الجهواري الى القاع وتبقى منه ابيات تقف حالات شاذة قد تظهر من ظالم او متعد او ما شابه مما نذكر به حياتنا وعصرنا مرسوماً في شعر المتنبي مثلاً في غضبه المدمر.

★ سمعتك تتحدث عن الشعر الحرّ وكأنه تجاوز لاشعري للشعر العربي. كيف تنظر الآن الى الشعر الحرّ؟

وكيف تنظر الى ما يقدمه شعراء قصيدة النثر. وهل انت على صلة بإنتاجهم؟

- ان الشعر الحرّ (شكلاً) اصبح مقبولاً بعد ان اظهرته نازك والسيّاب ويمكن ان اقول ان هذا الشعر ظاهرة فنية عند هذين الشاعرين فقط.

ان شهوة التقليد والشهرة ادخلت الى هذا الحقل - لسهولة النظم- مئات الشعراء (او من يسمون بهذا الاسم) وهم لا يمتلكون الخيال الشعري ولا الموضوع الشعري كما ان الشعر الحرّ اصبح (ظرفاً) يخزن فيه الشاعر كل الاخطاء اللغوية، لأنه لم يتعلم لغته جيداً قبل ارادته ان يكون (شاعراً عظيما) اضف الى ذلك ان الشعر الحرّ توجّه الى الموضوع السياسي والاجتماعي كما توجه اليه الرصافي والزهاوي اذن فما الجديد؟ عشرات الكتب كتبت عن خروج الشعر الحرّ من جيله الاول الى اليوم ويؤاخذ هؤلاء الشعراء على ضعف لغتهم وكأنه ارهاص للانتقال الى شعر العامة.

فمشكلتنا في الشعر الحرّ هما اللغة والموضوع وهما موضوع الشعر الجيد حراً كان او غير حر وهما لا يتوفران في اطنان من هذا الشعر التي طبعت وزوقها دواوينه مثل كتب الزنادقة ولم تقدم لأدبنا كثيراً واصبح الشاعر الحرّ لا يبرز في ادبه اكثر مما يبرز في شكله في لحية قصيرة او شعر على شكل عقيصة او شعر كث وربما يظهر مع غليون ليعطيه شكل المفكر الفيلسوف. شاهت الوجوه!

اما (قصيدة النثر) فقد قرأت الكثير من الشعر المترجم الذي كتب تحت هذا الجنس وخاصة شعر بودلير وبعض الشعراء الآخرين في الادب الانكليزي والفرنسي وقرأت شيئاً من هذا لأدونيس.

انه نمط من الادب لا نسميه (نثراً) لغناه بالفكرة الشعرية والاسلوب الشعري ولا نسميه (شعراً) لأنه يفتقد الموسيقى الشعرية واللحن الذي هو خصيصة من خصائص الشعر. ان قصيدة النثر تشبه الذكر الذي تحول الى انثى، فلا هو يمتلك شخصية الذكر، ولا شخصية الانثى. فلا بأس ان نتمتع بما فيه من افكار طليقة حرّة ولا نسمّيه بإسم ولعل اسم (خواطر) هو اليق به كما ان كلمة (خنثى) اشبه بالرجل - المرأة او المرأة -الرجل .

★ انت من البعثات الاولى التي ذهبت الى انكلترا - كيف تنظر الى دور البعثات في خلق ثقافة حديثة؟

- كانت البعثات من الثلاثينيات الى نهاية الخمسينيات هي المشكل الذي اوقد الحركة الفكرية في العراق على اختلاف اثر هؤلاء المبعوثين. فقد ارسلت بعثات ادبية الى فرنسا ومنها المرحوم د. علي جواد الطاهر والمرحوم د. باقر عبد الغني والمرحوم د. علي الزبيدي وغيرهم وارسلت الى انكلترا بعثات كان منهم د. وديعة طه النجم ود. يوسف عزّ الدين ود. جلال خياط ود. داود سلوم والمرحوم د. عبد الجبار المطلبي ود. عناد غزوان وغيرهم وارسل عدد كبير من الطلاب الى الجامعات المصرية بل حتى الروسية حيث تخرج الدكتور جميل نصيف فيها.

وهم اضافة الى الترجمة عن اللغات الاجنبية في مصر ولبنان والمغرب بعثت هذه الحركة الادبية التي استلمتها الاجيال التي تخرجت من كليات الآداب والتربية وكتبوا رسائلهم متأثرين بتوجيه هؤلاء الاساتذة. فإن كل نتاج هذه الرسائل العديدة كان متأثراً بشكل او بآخر بهذه الثقافات. وكما كان طه حسين رسول الثقافة الفرنسية الى مصر فقد كان هؤلاء الافاضل رسل الثقافة الفرنسية والانكليزية والروسية.

ان تحجر ثقافتنا بعد منع البعثات وبعد انتهاء هذا الجيل الفذ اغلق علينا باب الرؤية الى ابعد من انوفنا وان ما حصلناه من رصيد بدأ يتناقص بسرعة ، لأن الجيل الاول من الطلبة الذين افادوا من هؤلاء قد انغلقت واغلقت عليهم سبل التطوير اضافة الى ضعف الاتصال بالمنهج العلمي حتى اصبح لدينا طلبة لا يتمكنون من اختيار الموضوع ولا يحسنون عربيتهم بحيث لا يعرف ان حرف الجر في كلمة (ادبه) يجر الباء فتلفظ الباء مرة منصوبة ومرة مرفوعة. وهذا المثال اقتطف من مقابلة باحثة تقدم موضوعاً للجنة في الدراسات العليا فتأمل!

ان فتح البعثات واطلاق حرية الدراسة طريقنا الوحيد الى خلق ثقافة جديدة. فكلما اقتربنا من المنبع كلما ابدع الناقد الدارس والكاتب الروائي والشاعر والأ ستكون ثقافتنا تشبه بيضة الديناصور المتكلسة التي يجدها علماء الحيوان في الحفريات.

★ هناك ما نسميه تأريخ شخصي ثقافي، ماهو تاريخك الشخصي وهل دخلت في معارك ثقافية ادبية وما هي ابرز المعارك التي شاركت فيها؟

- يبدو لي ان هذا السؤال يحمل شقين: الشق الاول هو المسيرة الثقافية، والشق الثاني هو (المعارك الثقافية) اما بالنسبة للشق الاول: فقد ولدت عام ١٩٣٠ في بغداد ودرست القرآن العظيم في سن الخامسة والسادسة واذكر (حفلة) التخرج حيث سار بي من هم في سني الى دور اقاربي وهم ينشدون اهزوجة اعدت لهذه المناسبة ومطلعها (الحمد لله الذي تحمدا) وسارت بي الحياة الى الابتدائية والمتوسطة والثانوية الفرع الادبي ثم دخلت في كلية الآداب عام ٤٩/٥٠ وتخرجت منها عام ١٩٥٣ وسافرت في ايلول من السنة نفسها الى انكلترا للدراسة على حسابي الخاص ولم انل بعثة الحكومة الا في الستة شهور الاخيرة وتخرجت قبل ثورة تموز بأيام وحدثت الثورة ثم عدت الى العراق. وفي ١٧ ايلول عينت مدرساً في كلية الآداب. جامعة بغداد ثم ترقيت الى استاذ مساعد ثم مشارك استاذ في ١٨/٦/١٩٧٢.

وشغلت رئاسة قسم اللغة العربية في فترتين هما في ١٤/٩/١٩٧٥ لمدة سنتين تقريباً ثم في ٢٢/٩/١٩٨٥ لمدة عدة شهور واوفدت الى معهد اللغات الافريقية والآسيوية في جامعة همبولدت عام ١٩٦١ والى جامعة ايبادن في ١٩٧١ وكان لهذين الايفادين اثر كبير في افادتي وثقافتي العملية من خلال معايشة حضارات مختلفة وبعد التقاعد درست في جامعتي آل البيت وجامعة جرش في الاردن.

اما بالنسبة للشق الثاني - فإني قد دخلت في مناوشات ادبية لعل اهمها كان حول الشعر الحرّ والدفاع عن شاعرية الشاعر آل ياسين وبراعته في الصياغة وانه وريث الجواهري ونشر اغلب هذه المقالات آل ياسين نفسه في كتاب له اصدره عما كتبه النقاد عنه.

★ ما هي المحطات الابرز في تاريخكم الثقافي؟

- حين اتناول هذا السؤال فإني لا افكر الا في الكتب التي الفتها وقد مثلت لي مراحل مختلفة من التوجه الثقافي المحكوم بالبناء العام. فقد توجهت اولاً الى النقد والنقد القديم ثم الى جمع دواوين الشعراء مثل الكميت ونصيب ويزيد بن مفرغ ومن مراحل هذا التحول الكتابة في التراث الشعبي العراقي وجمع نصوصه ومنها العناية بلهجات الفصحى.

ولعل هذه الحادثة تفيد هنا. فقد جاء الي عباس علوان الى الاردن في خروجه الاخير وقد حدثني بهذا الخبر: بعد ان قدمت انا وعلي جواد الطاهر الى جائزة وزارة الثقافة بعد ان اعطيت لعرب وعراقيين. قال علي: وكنت في اللجنة التي تقرر الترشيح وقد رشحت انت (يقصدني) والدكتور علي جواد وقررنا ان نقسم الجائزة مناصفة بينكما ورفع القرار للتوقيع فلم يوقع ولم ينشر. ان حياتي في علاقتي الثقافية من حيث تقدير المواطن على جهده قد خضعت لكثير من هذه الاسباب (السرية) التي من اجلها يمنع المثقف العراقي من حق تقدير جهده.

★ انت من المدافعين عن اللغة العربية. وسبق ان هاجمت الدعوات الى العامية، فكيف عملت على بعض الحكايات الشعبية العراقية؟ اليس في هذا (تعصب) لعراقية لا واعية تتحكم برؤى الدكتور داود سلوم؟

- ان عملي في التراث الشعبي كان للبحث عن مضامين هذا الادب وتفصيحه وما فعل الرواة الاول حين ذهبوا الى الصحراء لجمع هذه المضامين وان كانت مازالت تروى بلغة الناس الفصحى آنذاك فعند تفصيح المضامين يصبح الادب الشعبي. نمطاً جديداً من الادب الفصيح ويحفظ لنا تراثاً ثرّاً في السلوك والعادات والتقاليد.

اما اذا كان في هذا (تعصب) فإنا احب العالم واحب العالم العربي ولكني احب العراق اكثر من حبي لبلد آخر. تحدثنا مع طلبة الدكتوراة هذا العام وجرى الحديث عن السفر الى بلدان اوربا وافريقيا والعالم العربي فقالت سيدة من الطلاب: ماذا اعادك اذن الى العراق؟ ارجو ان يسمع القارئ الكريم جوابي ويعيه فقلت لها: (وهل اترك غبار العراق وذبابه لكم) هذا يعني ان كل ذرة تراب وكل بستان وكل نهر وكل قطرة مطر تسقط على الارض العذراء فتفوح رائحتها الزكية - كل هذا، وكل فصول بلدي وحرّة وبرد ومطره جميل جميل جميل، فلو خيرت ان اخلد في الجنة اوالعراق لفضلت الخلود في العراق. وماذا اصنع وقد اصبت بداء حب الوطن فهذا قدر لا استطيع الفرار منه ولا الفكاك من قيده واني اقول انه نعم القدر ونعم القيد ولو مت وبعثت الف مرة وسؤلت أي وطن اريد، لقلت العراق الف مرة ولذلك لا يمكن ان اغفر لمن يسيء الى (عراقي) مهما كان عرقه او جنسه او دينه وشكراً.

قصة

ترحال

علي لفتة سعيد

حمل امتعته وغادر المدينة، تدلّه عصاه على الطريق يبغي الوصول الى مدينةٍ اشرقت عليها الشمس ولم تغب.. فمدينته لفّ جسدها الحزن المتغلغل في البيوت، وصارت طرقها خاوية، تهمس جدرانها مرتعشة.

وفي قلبه نصل سكين، لحظة انغرز عميقاً، اصابه الوجع.. واسودت الدنيا في عينيه.. فقرر الرحيل الى مدينة تلتقي عندها جهات النجوم وتبرق في ثناياها الاضواء.. تخفق القلوب كلما ذكروها .. بل صارت محطّ رحالهم كلما اشتد الانين وزاد الصراخ.

كان يتحرك ببطء، ليحافظ على ما يخفيه تحت عباءته، يلتفت يميناً ويساراً.. يقف ليراقب الوجوه، لا تسعفه عيناه على التحديق جيداً.. لكنه بغريزة الرجال يعرف ان لا احد يراقبه .. اذن لا احد يعرف ماذا بيده المضمومة تحت العباءة ... لم تكن المخطوطات غير مدونات ذكرها الراسخون في الحفظ والتدوين والتنبؤ.. بعد ان تناقلتها الشفاه الواثقة من الآذان، لتختزن في العقول.

وعندما طمرت الاسماع بعجين الخوف وطنين قرقعة المعادن وبقاء مغناطيسية الصوت الرهيب تعبث في التراب، راحوا يتناقلون همساً اسرارهم، حتى انبرى من امسك بالقلم ليدون ما نثرته الالسن .. جلس في احدى الليالي وراح يرتب المدونات على ورق اصفر مبلول بماء العشب البري.. وقد نشفت قبل التدوين عليها تحت ضوء القمر لدورات سبع متكاملة.. ليبدأ بالتدوين بعد انتصاف النوم.. يبلل اطراف اصابعه ويودع بعد اكتمال القمر دورته السابعة الى من وجده مستودع اسراره قبل الرحيل الابدي الى المدينة ذاتها .. كان يصارع في كيفية ايداع المخطوطات التي وصلت اليه من ابيه من جده الاول.. حتى جده السابع.. وتحولت عظام الجميع الى رميم. وهم يوصون من يرث المخطوطات العبارات ذاتها.. ان هذه المدينة انشأها رجل يملك من الشجاعة ما يفوق اجيالاً ومن الحكمة ما يعادل كل من سطع اسمه في زمنه وبعده.. ومن العدل كل من جلس ليساوي بين الناس.. استقر به الترحال عبر الصحراء .. في ربوعها العطشى، حولها الى واحة حين انبثق الماء تحت قدميه.. فتناثر بين جنباتها طالب العلم الى جانب طالب التوبة.. لم يكن يملك غير اسمه الذي تناوشته الطير فتصلي له.. فتبدو اساريره للناظرين اليه حاسدين او عاشقين.. كأنه يقرأ ما يجول في الخواطر من ارهاصات زرق ومخاوف حمرٍ.. سار بين الناس الخائفين عليه وكان خائفاً عليهم.. فيقول ..

فكانوا يقولون له انك من تقود وما علينا الا ان نقاد.

... قلب الرجل المخطوطات السرية في مساء استعداده للمغادرة، فأعجبه ما فعله الاجداد، من انهم الحافظون للاسرار وراح يقرأ لآخر مرة على ضوء الفانوس محني الظهر.. وعندما وصل الى مخطوطة صفراء نزلت دمعتان... اطلق الرجل حسرة وتابع خطأه.

.... بعد قرون.. كبرت المدينة وصار الناس لا يقرأون بل لا يسمعون... وانهم لا يعرفون من امر الكلمات شيئاً.. حتى ظنّ المحبون، ان لا مخرج آخر يقود الى النور الساطع.. فتدثروا بظلال الصمت وصارت الظلمة ميزان الرؤية.. والرجل يئن من خوفه..

يسأل نفسه.. متى يستطيع ان يعلن للناس، ان له من المخطوطات ما تجعل كل من يقرأ يرتد على اعقابه؟ ... لكن حفيداً برز .. وقاد الخمول ليضربوا في لحظة موقوته الميعاد خوفهم، تاركين اكفهم تمسك بمقبض سيفه، او تلوح له، كأن القرون تلاقت.. فعادت النذور لتروي بدمائها الجدران والشوارع.. ويرش رذاذ الماء على المارين في احتفالات مهيبة بعد تحقيق المآرب، وعندما اشتد الحديث وصارت الرقاب تمد لإحتضان رؤيته.. نغزتهم المعرفة.. وعرفوا ان للكلمات ضرائب، وان السير خلفه محفوف بالمخاطر.. فأنحرز نصل الترقب كوخزة اليمة، حسبوها انذاراً للعودة الى الصمت ... لكن حفيداً آخر، اعلن وضوح الرؤية وغابة الاهداف، وطبع اقوال الجد على ورق ناصع وزاد عليها اضاءة المعرفة لتخرج من كفٍ الى كف.. لتجد مكانها الزجاجي على الجدران، موقعين عليها تاريخ رجالهم لشرب السلسبيل، نافضين الغبار عن جهلهم.. وعنادهم يرقص في دواخلهم.. عندما ارتاحوا وصفقوا وقبلوا يد الحفيد.. هاتفين بإسمه بعد ان وفر لهم الماء بعد عطش. ناظرين الى بياض وجهه وطلعته البهية. يصغون الى كلماته الداخلة بلا استئذان لفراغات العقول.. مصادراً لبهم القلق العائد بهم للتمسك بأقوال الجدّ العظيمة.. ورأوا الطيور ايضاً وهي تأخذ مكانها بين حدقاته عندما يعتلي منصة الكلام.. فيبايعونه مغمضي العيون كأن قلوبهم لا تقبل أي تأويل آخر... كان الرجل يستمع للعائدين بنشوة متوقدة.. يسألهم: كيف وجدتموه.. ثم يفتح فاهه لإستقبال التوضيح وحمد الله ان ليس له اسنان تصد

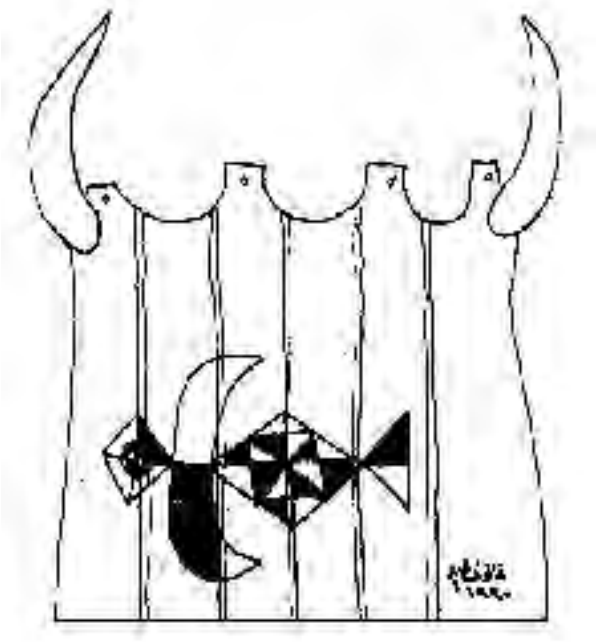

خطأه نحو التصحيح .. فتهامس الناس.. من هذا الرجل؟ نقّبوا شجرته.. سألوا كبار المجالس .. سمعوا حروفه مثل موسيقى تطرب ايقاع الروح.. وعندما اطمأنت قلوبهم تركوا خطأهم له.. ووجهوا آذانه لكلماته الحكيمة الموروثة.. خرجت بعض الاقاويل المتفرقة، لتسكن الرؤوس.. حاولوا صهر الكلمات في بواتق من ذهب وفضة ليخبئوها في عقولهم حتى لا تهرب من جديد.. مترقبين لحظة ينشق فيها ايوان الكلمات.. قالوا له: رائحة المسك تحف به كما هي رائحة التاريخ والحكمة. عندما يحرك اصابعه مع صوته الهادر في الفضاء، تهتز له القلوب وترتعش الحناجر.. كما لو ان الجد هو الذي بينهم.. طلعته بهية حين يرونه قادماً.. تخرج اصواتهم بإيقاع واحد.. كأنهم ولجوا الرياض بلا منغصات.. معيداً عليهم كلمات الجد التي لم يتسطع احد من قطاع الطرق او نهازي الفرص او جوابي الافك من تشويه معانيها .. فيكون ذلك انبهار الذي رأوه فيه على غير عادته. كان الجدير يرسل رياحه في وقت يخالف الطقس وعندما ينتهي الحفيد ويسحب انفاسه. عاد المناخ ممطراً او ساخناً.. قال لهم ماذا يقول لكم.

.. ينتظرون لحظة ليعتدل في جلسته .. فهم يعرفونه لا ينام حتى يسمع منهم كل ما رأوه.. قالوا له: ان يجوس بالكلمات على مسمع الرؤوس المصغية.. والتابعون يزدادون كل يوم، حتى خافوا عليه.. لأن لحظة الانتهاء قبل اكتمال الاوان ارادوها قريبة.. قال لهم: ان الدرب يوصل الى حيث تريدون.. وان الشجر ابوارف سيزداد خضرة وستعشش الطيور وسيغيب الخوف قدماً بعد قدم... وستزول الرهبة عندما تقررون لو انكم ابتعدتم عن الرذيلة وسرتم في درب الفضيلة .. فأنا واحدٌ منكم.. لا املك كل المفاتيح.. ولكن عليكم بزاد التقوى امسكنا لحناً وسيطرنا بالكاد على انفعالات البكاء.

في لحظة اقتراب انجمة الساطعة.. من القمر في انتصاف شهره.. دغدغه الفرح، ولم يتم ليلته تلك .. قضاها راكعاً ساجداً .. قارناً لأدعيته.. في اليوم التالي سمع بخروج الحفيد.. انزوى في غرفته.. يقلب المخطوطات المخفية في الجدار.. اماط الغبار عنها بنفخة قوية.. وعرّى كلماتها البلاغية.. وصاح بأحفاده ان موعد السطوع قد بان وان اشارت النهوض ومضت.. ولزوجة الهدنة التي صارت كتقيّة لا بد منها قد ماعت. قال لهم بعد ان قاطعوه بين لهاثين.. ان الحفيد هذا هو هدفكم في الانتباه الى درب لم تطأوه. لأنكم كنتم سادرين في التيه.. انتبهوا الى كلماته لأن فيها من الانطلاق ما يجعلكم قريبين من التوبة.. انتبهوا الى طريقكم الجديد واسلكوه آمنين ولكن عباً كمية من الهواء ليذيب مرضه ويريح حنجرته المتعبة. عدّل من طرف (يشماغه)وواصل الحديث: دوروا بين الناس.. نبهوا الآخرين عليه فهو الحفيد النابع من تلك الشجرة المقدسة بل هو من نفس ذلك الغضن الذي علقت عليه اسماؤهم.. وكانوا اقماراً.. تهامس الاحفاد غير مصدقين. لم يستوعبوا ما خفي من المعاني وما قصده جدهم. نظر اليهم.. وعرف استغرابهم.. اخرج لهم المخطوطات.. فتحوا اشداقهم متعجبين.. لم يروها من قبل.. ايقظتهم نفخة الجد في وجوههم وسمعوه:

لم اخبركم.. لأن لا احد اثق به منكم كما كان يثق آباؤنا من قبل.. وراح يقص عليهم الرؤيا.. وها هي قد الضرورة حانت. سأله كبير الاحفاد: وهل سيستمر الحفيد بجمع اشلالنا؟ حك الجد ذقنه واختفت نظراته في السماء. قبل المغادرة سبقته ليلة ارعبته.. كانت اشجار الحديقة قد ذبلت اوراقها.. ولم يحن وقت الخريف بعد؟.. وتقوست اغصانها.. لحظتها راح يرشق السماء الصافية بنظرات مستطلعة .. لم ير فيها نجمة. وقد غاب القمر.. كأن المتاهة عادت لتجوس في الطرقات والعقول من جديد، عرف ان رؤيا الاجداد التي تركت غصة في نهاياتها لم تكتمل كلما وصلوا الى قرب النهاية فإنغرزت بين ضلوعه كرة من شيخوخة اعادته الى فراشه كثيباً.. غطى رأسه بين ذراعيه.. حوقل وبسمل وارخى جسده. عند انتصاف الليل سمع صوت طلقات.. تناثر من هدير رعديد. حسبها تشبه طعنة الجد في محراب الصلاة حين انتهى من بناء مدينته .. جلس مذعوراً لا يعرف طريق الخروج وروحه تتراوح في بدن اهلكته السنون ومخاوف من انه لن يجد يداً يورثها رؤى الاجداد وثورة الكلمات. في آخر ركعة له قلب لآخر مرة المخطوطات.. بعدها قرر ان يبدأ رحلته حاملاً ما معه ليجلس جلسته الاخيرة قرب مثوى الجد وقد اخذه التفكير طويلاً.. لأي حفيد سيعطي المخطوطات ليحفظها من الضياع.. فربما لم يحن بعد وقت اطلاع الناس على ذهب الكلمات وهم مشغولون بالتقاط انفاس.